

الفصل الثالث

الولاء

يعد ضروريا لفهم التأويل الفلسفى للدين عند « رويس » ، أن يتم عرض ودراسة فلسفته فى « الولاء » . لأن من الواضح أنه قد ربط بين الإيمان الصادق والمعنى الحقيقى للولاء . فإذا كان جوهر الإيمان فى نظره ، يتمثل فى الإنتماء إلى « الكنيسة الحققة » ، ويتحقق خلاص الفرد بالولاء « للمجتمع المحبوب » ، فإن الفهم لفكر « رويس » الدينى ، لن يتأتى إلا بفهم المقصود بالولاء وفلسفته . والحياة الأخلاقية المرتبة عليه . ولما كان « رويس » لا يفصل بين الأخلاق والدين ^(١) . فإن دراسة فلسفة الولاء عنده ، يدخل ضمن نطاق التأويل الفلسفى للدين .

أولاً: الحياة الأخلاقية للولاء

أ - طبيعة الولاء والحاجة إليه

يرى « رويس » أن إحدى سمات العصر الحديث تتمثل فى إعادة بحث ومراجعة المعتقدات القديمة ، وإنتشر هذا الاتجاه الناقد ليشمل مجال العلم والدين والأخلاق ، ولئن كانت العلوم قادرة على الدفاع عن نفسها وإعتبر المؤمنون الشك الدينى قدر العصر الحاضر بسبب إنتشار الثقافة الفردية ، إلا أن التشكيك فى أساس الأخلاق ، أمر يصعب قبوله ، لأنه يشمل العالم المرئى واللامرئى ، ويشكك فى الجهود المبذولة لتطوير العلم ، ولتحقيق المحبة التى تنادى بها الأديان فما قيمة العلم والدين ، إذا كانت الحياة الإنسانية ذاتها ، التى يعمل على دفعتها ، ليس لها معايير أخلاقية ثابتة ، يستطيع أن يقيس الفرد بها قيمتها . وإذا ما حامت ودارت التساؤلات حول معايير الأخلاق ، فإن الشك ينفذ الى القلوب . لذلك يرى « رويس » أن من الضرورى دراسة أسس الحياة الأخلاقية وقوانينها ، وربطها بالجانب العملى للحياة الإنسانية . ولما كانت حيرة إنسان العصر الحديث قد أثرت على السلوك

J.Royce : The Philosophy of Loyalty (1908), The Macmillan Company , New York, 1930 . pp. 377-383 . (١)

العملى للفرد ، فإن دراسته الأخلاق تعد ضرورية لتنوير العقول وتأكيد الأفعال . ولا بد من تحديد الموقف الأخلاقى ، والبحث عن روح جديدة ، يتم بها مراجعة الأخلاق التقليدية (١) ، ولما كان النقد عمل الفلسفة ، فإن فلسفة الولاء ، هى القادرة على الوصول الى روح هذه الأخلاق التقليدية بدون هدمها ، أو القضاء عليها . وتشير هذه الفلسفة الى إعتبار الولاء مبدأ أخلاقى طالما أن كلمة فلسفة ، تشير الى المبادئ الأولى ، والى دراسة نقدية للولاء . وإلى الإعتماد على العقل لوضع تعريف له ، وتحديد القضايا المناسبة له ، والى الغوص الى أعماق السلوك الإنسانى والى منبع القيم والمعايير الأخلاقية .

ويضع « رويس » تعريفاً إبتدائياً للولاء ، وإن كان يعود إلى تعديله بعد ذلك ، بأنه الرغبة والإخلاص العملى والكامل والمستمر من شخص ما تجاه قضية ما (٢) . ويكون الفرد مخلصاً ، إذا كان لديه قضية نابعة من إرادته ويعمل بإستمرار لخدمتها ، ولا يفعل ذلك بوحى داخلى ذاتى ، وإنما بوحى من القضية يرشده الى ما يجب القيام به من أفعال . ولا بد من أن تحظى القضية بتقدير الفرد لها ، ولا يعنى الولاء مجرد المحبة لها لأن للقضية قيمتها الخاصة والمستقلة عن الفرد ، فلا تسمتد قيمتها من سعادة الفرد بها - لأنها قد يخلص لها عدة أفراد ، فالولاء إجتماعى . ولما كانت القضية تؤدي الى توحيد مجموعة من الأفراد لخدمتها ، فإنها تبدو للمخلص أنها ذو طبيعة موضوعية ولها صفة فوق إنسانية فقد يجب الفرد فرداً آخرأ ، ولكنه لا يخلص إلا الى رابطته تجمعهم مع مجموعة من الأفراد فى نوع من الوحدة فيكون مخلصاً لهم فقط من خلال هذه الوحدة . فلا يكون الحبيب المخلص مثلاً ، مخلصاً للمحبوب بإعتباره فرداً مستقلاً عنه ، وإنما يكون مخلصاً لحبة ذاته ولوحدتهما معاً ، فيرى فى الحب موضوعاً مستقلاً عن أى منهما وله قيمته فى ذاته .

وأما بالنسبة لتحديد قيمة الولاء ، ومدى حاجة الإنسان إليه ، فإنها مسأله تتطلب تحديد القضايا التى تستحق الإخلاص لها ، وتبرير سبب هذا الإخلاص . أما إذا تم النظر للولاء بصفة عامة ، وبصرف النظر عن صلاحية وفساد القضية ، فإن المخلص يتصف

JIbid., p. 12 .

(١)

JIbid., p.17.

(٢)

بالنشاط والحيوية ويستسلم لقضيته ويتحكم فى رغباته ويتمتع بحالة عقلية مستقرة ، لأن الولاء يعالج التردد ، ويوجه حياة الفرد ويحقق لها الإستقرار . والحقيقة ان توضيح قيمة الولاء مسألة تتطلب معرفة طبيعة الموقف الأخلاقى . فالفرد يتعلم واجباته ومثله العليا والقانون الأخلاقى من سلطة خارجية ولكن إذا تساعل عن السبب عن لماذا يكون واجبه هو واجبه ؟ فانه لا يستقبل إجابة من أى سلطة خارجية لان واجبه يكون عبارة عن إرادته الذاتية وقد وضحت فى الشعور . لذلك إذا أراد إجابة لتساؤله ، عليه أن يرتد الى ذاته وإرادته العاقلة . ولكن من جهة أخرى ، يلاحظ الفرد أنه لا يستطيع معرفة إرادته من مجرد التفكير فى رغباته اللحظية وإذا ما عزل نفسه عن الآخرين لا يجد إلا مجموعة من النوافع والرغبات المتغيرة ، ولذا فهو فى حاجة إلى التدريب الإجتماعى . لذلك يكون الفرد فى موقف أخلاقى متناقض . إذا أراد معرفة واجبه فلا بد من إستشارة إرادته العاقلة ، وفى نفس الوقت إذا ترك لذاته لا يستطيع معرفة خطه حياته وأرادته ، ولا بد أن يعتمد على الآخرين ومحاكاتهم حتى يعرف إرادته ، كما يستمر التناقض فى تلك الحياة الأخلاقية ، فبالرغم من أن الفرد يتعلم معرفة إرادته من النظام الأخلاقى ، إلا أن ذلك لا يؤدي إلى معرفة حقيقة كل الموقف الأخلاقى ، فحقيقة يتعلم الفرد من الخطط التى يقدمها له النظام الإجتماعى ، ولكنها غالباً ما تكون خططاً ناقصة ، لا تمثل كل الحياة المثالية ، كما أن الفرد أيضاً قد يستطيع تكوين الخطط ووصفها وتفسيرها تبعاً لمصلحته . فالمجتمع يعلم الفرد ، وبعد ذلك قد يثور الفرد عليه . لذلك من الواضح أن الحياة الأخلاقية تقوم على جدل لا ينتهى بين الداخلى والخارج . فيعرف الفرد واجبه بإرادته عندما يظهر فى الوعى الذاتى ولكن فى نفس الوقت لا يستطيع معرفة إرادته إلا من خلال التدريب الإجتماعى الذى يمدده بالخطط ، فيصبح ماهراً ويسعى لمعارضه النظام الإجتماعى . لذلك يرى « رويس » أن الركوز إلى الداخلى فقط أو الخارج فقط ، لا يؤدي الى معرفة أى سلطة حاكمة ثابتة ، أو خطة مستقره متناسقه للحياة ، ولا بد من تكوين نوع من الوحدة بين الداخلى والخارج بين عالم الذات وعالم المجتمع بين السلوك الفطرى والمكتسب ، ومثل هذا النوع من الوحدة ، هو ما يسمى بالولاء . إن

الولاء لقضية ما « الدفاع عن الوطن مثلاً » ، يحل الصراع بين الإرادة الذاتية والجمعية . ويحول الشرف إلى إذعان والثورة الى طاعة ، ويصبح الإستسلام للقضية نوعاً من الرغبة الذاتية وتتوحد السلطة والخدمة ، ولا يتعارض الإذعان مع تمتع الفرد بالإرادة الذاتية . لأنه يوجه الإنتباه لقضية ما ، ويفرض على الفرد النظر خارج ذاته لمعرفة هذه القضية الموحدة ، وبين له خطة واحدة للعمل ، فيحل إشكالية تناقض الوجود الإجتماعى للفرد ، فيبين للفرد القضية التى يخلص لها ، ويؤكد له أنه لن يفقد إرادته الذاتية بها وإنما سيعبر عنها فى العمل من أجل هذه القضية (١) .

ب - صفات سلوك الولاء وقضاياها

إذا كان الولاء يمثل الخير الأقصى للفرد ، فمن الضروري معرفة القضايا التى تستحق الولاء وصفات السلوك المخلص تجاهها . ولئن كان هناك العديد من الأمثلة التى يمكن منها تحقيق هذه المعرفة ، إلا أن بعضها قد يترك إنطباعاً بأن الولاء يتصل بأمور مادية أويسلطة تلزم الفرد بواجبات معينة . والحقيقة أن المسألة على النقيض من ذلك ، فالولاء يرتبط بالأصالة والإبداع ، وغالباً ما يعبر المخلص عن ولائه بفعل جديد ، لا يستمد من العادات والروتين ، أو من إعداد مسبق وإنما يخترعه إختراعاً ، فيكون الفرد مبتكراً لواجباته ولأنماط السلوك المحققة لها ، مثلما يكون مخلصاً لها . فقد يجد الفرد نفسه فى موقف جديد تماماً ، لا يتشابه مع أى من المواقف القديمة التى قد عرفها من التقاليد والأعراف فيلجأ الى إبتكار سلوك جديد ، يعبر عن التوحد الكامل والإرادى بين الذات والقضية ، ويجمع بين تأكيد الذات والإذعان للقضية ، أو يحقق له الكرامة ولا يتعارض مع التقاليد المألوفة (٢) . وتلك الصفات هى صفات سلوك الولاء الحق . فعندما يختار الفرد القضية التى يخلص لها ، يسلم نفسه لها فتصبح لسانه الذى يتحدث به ، ويفعل ما تأمره به . وأما بالنسبة لصفات القضية التى تستحق إخلاص الفرد لها ، فإنها توصف بالخيرية ، طالما كانت أساساً قضية الولاء من الولاء ، وتساعد على تنمية وتحقيق ولاء الآخرين ،

Jibid., p. 42 .

(١)

Jibid., p. 45 .

(٢)

والحقيقة أن هناك من القضايا ، ما يخلص لها الفرد ولكنها تعد قضايا شريرة بالرغم من هذا الإخلاص . فإذا كانت القضية التي يخلص لها الفرد تتعلق بخصومة عائلية مثلا فإنها تحيا بتحطيم ولاء العائلات الأخرى فقد يحقق الفرد خيره وخير من يشاركونه نفس القضية ولكنه يكون في نفس الوقت ضد روح الولاء والتي قد تظهر في إخلاص الخصوم لقضيتهم حقيقة أن القضية تتضمن نوعاً من الولاء للولاء ، لأن الإخلاص لأى قضية ، يعنى التأيد لولاء الآخرين الذين يشتركون معه في نفس القضية ولكن إذا كانت القضية ، تحيا بالتغلب على ولاء الآخرين لقضاياهم ، فإنها قضيه فاسدة ، لأنها تحوى عدم الإخلاص لقضية الولاء ذاتها (١) .

وقد يقدم النظام الإجتماعى مجموعه من القضايا العملية والحيوية ، والتي يمكن أن توحد حياة الأفراد ، الا أن ولاء الفرد لهذه القضايا ليس قدرأ حتمياً ، ولل فرد حق الاختيار ، ويستطيع التمييز بين القضايا الصالحة والقضايا الفاسدة ، ويمكن صياغة القاعدة التي يتسند عليها الفرد في إختياره فى العبارة التالية « طالما أن لديك القدرة على إختيار القضية والعمل على خدمتها ، وتعرف أن سبب إختيارك تحقيق المزيد من الولاء ، فلا بد من إختيار القضية التي تحقق أكبر قدر من الولاء بين الآخرين » . وبذلك يكون الفرد مخلصاً للولاء ذاته : إن قضية الولاء للولاء ، التي تجعل الولاء ينتشر بين الناس ، هى القضية الجديرة بالإخلاص لها . ويصبح واجب الفرد محدداً إذا ما وجد طرقاً عملية لخدمتها . ويشعر بقيمة القضية من الخير الذي يحققه فى خدمتها ، ومن الوحدة التي يشعر بها مع كل الحياة الإنسانية . وقد يتصور البعض أن قضية الولاء للولاء ، قضية إنسانية عامة يصعب تحقيقها عمليا ، فلقد أثبتت تجارب الحياة أنه لا قيمة لعمل يخدم الإنسانية ، طالما لم يبدأ الفرد بمعرفة مجتمعه الصغير وقضاياها الخاصة . والحقيقة أن أى قضية خاصة يمكن تحويلها إلى قضية عامه ، ويمكن أن يشكل الولاء لها ، عملاً يؤدي إلى خير كلى . فطالما كانت القضايا الخاصة مبررة عقلياً من جانب الفرد المخلص لها ، فإنها تكون صورة من صور قضية الولاء للولاء (٢) .

إن الولاء عباره عن مركب من رغبات طبيعية معينة ، ومن نوع من الإذعان الإجتماعى و من إختيار عمدى للقضايا ، فلكى يكون الفرد مخلصاً لقضية الولاء من أجل الولاء ، لا بد

Jlbid., pp. 101-107 .

(١)

Jlbid., p. 115 .

(٢)

أن يختار أنماط السلوك التي تتفق مع طبيعته الخاصة ، ويخدم القضايا التي تتفق مع مزاجه الطبيعي والفرص الإجتماعية . فمن جانب يختار الفرد الولاء لمن يحبهم لتحقيق مصلحته ومن الجانب الآخر ، يكون هذا الإختيار لهذه الولاءات الطبيعية « القضايا الخاصة » متفقاً مع المبدأ العام القائل بأن مهما كانت قضيتي ، فإنها لا بد وأن تتفق مع تصور لقضية الولاء الكلي ، ولا بد أن تشكل القضايا نسقاً واحداً ، أو قضية واحدة ، هي قضية حياة الولاء . ولذلك لا يكون هناك ولاء لمجموعة من القضايا المتباينة والمتناقضة ، فطالما أن القضية التي يخلص لها الفرد من إختياره ، وقدمها له وضعه في النظام الإجتماعي ، فإن قدراته الطبيعية والتبرير العقلي لها ، يجعلها تنال إعجابيه ، ولن يقبل وصاية من النظام الإجتماعي أو من رغباته الخاصة . فيكون متفرداً في ولائه مخلصاً في عمله ، طالما أن بداخله الشخص الذي يختار قضاياها الشخصية ، من أجل نشر الولاء الكلي الذي يسمح بنمو الولاء ، ويظهر ولاءات جديدة بدون التخلي عن القديمة منها (١) . كذلك ومهما كانت محدودية أفعال الفرد ، فإنه يساهم في الولاء الكلي ويتعلم الولاء من الآخرين ، ويعد كل مخلص لقضية وكل من يقوم وينشر الولاء بدون التأثير على ولاء الآخرين ، نموذجاً يتعلم منه الناس الولاء . ويستطيع الفرد تعلم الولاء من المخلصين ، بصرف النظر عن تشابه أو إختلاف قضاياهم عن قضيته . فالولاء ينتقل « بالعدوى » فيصيب المخلص وكل من يدرك ويلاحظ إخلاصه . أن قضية الولاء للولاء « ليست قضيه نظرية مجردة ، ولا يخلص لها الفرد بوصفه مواطناً يخدم العالم ، وإنما يخلص لها بخدمة قضاياها الشخصية . فلا يقدم الولاء صيغة نظريه عندما يقول « إبحث عن قضيتك التي تهتم بها وإخدمها بكل كيانك ، وعندما تختارها وتخدمها ، فإنك تخدم الولاء من أجل الولاء ، لأن بسبب إختيارك وخدمتك ، تزيد من الولاء بين الآخرين (٢) .

ومن الواضح أن فلسفة الولاء عند « رويس » جاءت عبارة عن أخلاق كانطيه في ثوب جديد حتى متطور متفاعل مع الواقع الإجتماعي ، فالولاء للولاء أقرب لفلسفة الواجب عند « كانط » . فالأفكار الرئيسية في فلسفة الولاء الأخلاقية ، كالإرادة الحرة العاقله

Ibid., pp. 116-125 .

(١)

Ibid., pp. 130-138 .

(٢)

وإتصاف سلوك الولاء بالخيرية والعمومية والإنتشار والإخلاص لقضية الولاء من أجل الولاء ، وحل مسألة الإختيار الحر، والإلزام وإعتبار الولاء ممثل للخير الأقصى للفرد والجماعة كل ذلك ، يبدو وكأنه قد تم إستبدال كلمة « الولاء » « بالواجب » ، أو أن « رويس » قد أراد إحياء الواجب الكانطى وتطويره مستخدماً روح الجدال الهيجلى .

ج - نظرية فى الضمير

بعد توضيح رويس لصفات السلوك القائم على الولاء للولاء ، « وقضية » الولاء الأساسية ، وصفاتها ، يقرر « رويس » أن « فلسفة الولاء » تقدم نظرية فى الضمير الأخلاقى ، يكون للضمير فيها نفس وظائف الضمير التقليدى ، ولكنها تخلص الضمير من كثير من المشكلات سواء المتعلقة بطبيعته أو بقيمته . فإذا ما تم التساؤل عن الضمير فغالبا ما تكون الإجابة بأنه أداة عقلية تخبر الفرد بصواب أو خطأ السلوك ، بأن يوافق أو لا يوافق عليه ، ويقع الجزاء المناسب الذى يأخذ صورة الرضا أو التائب (١) . ولكن يمكن رد التساؤل عن ماذا يكون ضميرى ، إلى تساؤل أعمق ، هو من أنا ومن أكون ؟ ويرى « رويس » أن بالرغم من أن الإجابة على هذا التساؤل تحتاج إلى نظرية ميتافيزيقية ، إلا أنه يمكن الإجابة بأن يعرض الفرد لحياته وأعماله أو ما يسمى بجوانب شخصيته العملية ، أو قد يجيب بعرض مثله العليا وغاياته ، وفى تلك الحالة يكون واصفاً لخطة حياته أو دوره فى الحياة . ولذلك يمكن تعريف الأنا الفردى بأنه حياة إنسانية تحيا طبقاً لخطة ، وتعبر عن هدف واحد ، ولا يكون هدفاً مجرداً ، فأينما تكون هناك شخصية ، تكون هناك غايات تتحقق فى الحياة . والحقيقة أنه إذا لم تكن هناك وحدة بين غايات الفرد وخطه الحياتية ، لفقدت الذات قيمتها الإنسانية وأصبح هناك مجموعة من النفوس الجزئية المتصلة بحياة كائن عضوى ، ولكن ليس بينها وحدة أو إتساق ، فإذا كان الولاء لقضية ما يحقق الوحدة لحياء مجموعة من الأفراد ، ويحدد سلوك كل فرد منهم ويجعل كل فرد ذاتاً إنسانية وحياة يوحداه هدف ما ، فإن أينما يكون هناك ولاء ، يكون هناك ذاتية وشخصية وهدف فريد

J.Royce : The Religious Aspect of Philosophy pp. 47-56

(١)

مجسد أ في حياة . وبدون ولاء لا وحدة . والذات حياة متوحدة بهدف واحد وشكل ولاءات الفرد هذا الهدف ، وطالما لا يتحقق الولاء تظل « الأنسا » غير مكتمله وتبحث عن وجودها . فالولاء هو ما يحقق للفرد الشعور والوعى الذاتى (١) .

والسؤال الذى يفرض نفسه الآن ، ما صلة هذه النظره للنا بالضمير ؟ يجيب رويس بأن الذات المخلصة تكون عبارة عن ذات تحيا حياة معينة ، وتبحث عن مثل أعلى ، ولما كانت الحياة ليست هى المثل الأعلى ، فإنه يظل هناك فرق وتميز بينهما . ولأن الفرد يحقق مثله الأعلى من القضية التى يخلص لها ، وتكون القضية دائما أكبر من حياته الشخصية ، وتتطلب منه أفعالاً أكثر من تلك التى يكون قد أنجزها ، فلذلك إذا كان الفرد ذاتا حقه ، فإن مثله الأعلى يقف فى مواجهه حياته الفعلية . وتتحدد القيمة الخلقية لكل فعل من أفعاله فى ضوء مثله الأعلى . لذا ينظر للقضية التى يخلص الفرد لها ولثله الأعلى ، على أنها يؤيدان تلك الوظيفة التى غالبا ما ينسبها الأخلاقيون « للضمير » وفى فلسفة الولاء ، تكون القضية التى يخلص الفرد لها هى ضميره . وإذا ما تم تفسير القضية باعتبارها المثل الأعلى لحياة فرد ما ، فإنها تمثل ضميره ، لأنها تقدم له دائما الخطة والمثل الأعلى للحياة ، وتتطلب التنسيق بين نوافعه اللحظية المتغيرة لخدمتها .

وأما بالنسبة لمشكلات الضمير التقليدى ، يرى « رويس » أن الضمير قد يصيب أو يخطأ ، مثل إختيار القضية ، فقد يكون إختياراً صائبا أو خاطئا . لأنه قد يكون هناك ولاء أعمى ، ومع ذلك يظل الضمير أفضل مرشد اخلاقى ، لأنه إذا نظر اليه من الخارج ، يمثل « قضية » الفرد ، وإذا نظر له من الداخل ، يمثل روح الذات « والمثل الأعلى » . وطالما يحيا الفرد حياة واحدة فإن الضمير هو القادر على تعليمه كيف يحيا ، وينمو بنمو الولاء ، وأما بالنسبة للمسألة القديمة الخاصه بعلاقة الوحدة بالكثره أو كيف يكون الانسان مخلصاً للولاء ذاته ، ويكون مخلصا فى نفس الوقت للقضايا التى تهمة وتتفق مع طبيعته ، أو كيف يمكن لقاعدة « كن مخلصا للولاء ذاته » أن تفصل فى حالات الشك الاخلاقى التى تواجه الإنسان والتي غالبا ما تظهر عندما يكون هناك صراع ظاهرى بين الولاءات المختلفة ؟ فالحقيقة أنه

Jlbid., pp. 168 -173 .

(١)

بالرغم من أن تحقيق الإتحاد بين الواحد والكثير أمر ممكن إلا أن الفرد قد لا يستطيع تحقيق هذا الاتحاد الكامل ، وإنما يمكن أن يحقق قدرأ من الوحدة تمكنه من فهم المثل الأعلى وتجعله مرشداً له . كذلك يتمتع المخلص بصفتين هما « الحسم » ، و « الوفاء » ، فعندما يواجه الفرد بقضايا متناقضة ، فإن إخلاصه لقضية الولاء للولاء يلزمه بالإختيار وعدم التردد ، حتى وأن كان جاهلاً بنتائج إختياره . فالولاء يفرض على الفرد الإختيار والالتزام بما إختاره . ولا يحق للمخلص عدم الإلتزام بالقضية إلا فى حالة إكتشاف تعارضها مع قضية الولاء من أجل الولاء (١) .

ومن الواضح أن « رويس » ينظر للضمير نظرة براجماتية ، فلا يبحث عن أصله أو نشأته ، أو ما إذا كان فطرياً أو مكتسباً إنسانياً أو إلهياً ، وإنما ينظر له باعتباره مميزاً بين الصواب والخطأ ، ولما كانت فلسفة الولاء ، ترى أن القضية هى الموجهة للفرد ، فالضمير يصبح قضيته . أن « رويس » يحاول أن يفسر كل ما هو خلقى فى ضوء فلسفه الولاء ، وكأن الولاء يقدم حلاً لكل إشكالات الفلسفة الخلقية . والواقع أنه إذا كانت قضية الفرد ضميره ، فإن ذلك لا يوضح معنى الضمير أكثر من توضيحه لمعنى القضية . وإذا ما تم هدم فلسفة الولاء وأصولها ، تنهار نظرية الضمير القائم عليها ، ولكن يبدو أن « رويس » قد أراد القضاء على أحد معاقل الفلسفة الأخلاقية التقليدية ، بتقديم نظريه جديدة فى « الضمير » تخرج الضمير من دائره الغموض . فالضمير يمثل الفكرة الثالثة أو الوسيطة التى توفق بين الواقع والمثال ، أو توضح كل منهما فى ضوء الآخر ، فالضمير تأويل يوفق بين متناقضين ، حياة واقعية تحياها الذات بالفعل ، ومثل أعلى تسعى لتحقيقه ، فالضمير ليس ملكة عقلية فطريه راسخة يستعين بها الفرد فى أحكامه ، وإنما جدل بين الداخلى والخارج ، وقد يخطأ أو يصيب .

ثانياً : ميتافيزيقا الولاء

إذا كانت حياة الولاء الأخلاقية أفضل حياة للإنسان فأى حقيقة تكمن ورائها ؟ وما علاقتها بالعالم الواقعى ؟ وإذا كان الولاء خدمة لقضايا ، وتربط القضية حياة الناس فى

Jlbid., pp. 173 .

(١)

وحدة وحياة واحدة ، فهل هذه الوحدة أو الحياة الواحدة واقع أم مجرد وهم ؟ وإن كانت حياة الولاء تستند على إعتقاد الفرد فى واقعية القضية وخيريتها ، فهل لهذه القضايا وجود حقيقى وتتصف بالخيرية ؟ .

أ - وحدة الحياة الروحية

يؤكد « رويس » أن وجود أساس حقيقى للولاء يفترض وجود وحدة روحية تتعالى فوق مستوى أى خبرة فردية مستقلة . فاذا كان الولاء خدمة لقضايا فوق إنسانية ، وتتصف بالخيرية ، فإن الخير الحقيقى لها ، لن يظهر لأى مجموعة من الافراد ، وانما يتم التعبير الكامل عن هذه الخيرية فى مستوى وعى أرقى من مستوى الوعى الفردى . فمثلها مثل القضايا الإجتماعية ، فقد يحصل كل فرد من الأفراد على نصيب منها ، ولكن لا تظهر وحدتها كأمله لأى منهم لأنها تكون فى مستوى أعلى من مستوى أى فرد معين . فإذا تم التسليم بهذا الافتراض ، فإن الولاء لا يكون مجرد خرافة ، ويصبح خير القضايا واقعاً فى تجربته أعلى من المستوي الإنساني . وإذا كان الولاء يحقق إتحاداً بين تأكيد الذات وإستسلامها ، فإن الفرد يصبح واعياً بعلاقته بوعى أرقى من وعيه ، يستمد منه قيمته ووجوده . كذلك إذا كان خير القضية واقعاً فى خبرة أعلى ، ترى القضية على حقيقتها ، وباعتبارها وحدة حقيقية للحياة ، فإن الفرد لا يكون مخلصاً بسبب خير يستمده من الولاء ، وإنما من أجل الخير الذى يتحقق للقضية من تلك الوحدة العليا للخبرة ، ولكن وبالرغم من ذلك يحقق الولاء له ، ما يسمى خيره الأقصى ، لأنه يحدد له وضعه فى عالم « الإرادة الجمعية » ، التى يحيا فيها ويكسب وجوده منها . والحقيقة ولئن كان المخلصون مؤمنين بأن الإرادة الجمعية موجودة ، ويأن لحياة الإنسانية وحدة واقعية حقيقية ، إلا أنه يجب إدراك وفهم تلك الحقيقة - وحدة الحياة الانسانية - وذلك الواقع . ويرى « رويس » أنه لن يتم ذلك إلا إذا كانت فلسفة الولاء جزءاً من فلسفة ، ترى العالم كله عبارة عن وحدة واحدة من الوعى وأنه يتكون من وحدات أقل منها (١) .

J.Royce : The Philosophy of Loyalty pp.355-360

(١)

والحقيقة أن الإنسان فى سعية للحقيقة ، لا يبحث عن حقائق ونجاحات جزئية للأحداث ، وإنما يكون هادفاً للوصول إلى حقيقة أبعد وأعمق تكسب منها تلك النجاحات الجزئية قيمتها ، ولا بد من الإعتقاد فى وجود النجاح المطلق ، وبأنه ، يتحقق فى تجربة أعلى من تجربته الإنسانية ، وتتوحد فيها كل النجاحات والتجارب ، فما الضمان لوجود مثل هذا الإعتقاد أو هذا النجاح المطلق ؟ . الواقع أن الإنسان يستمد عن هذه الوحدة صوراً ولحات جزئيه من أفكاره عن وحدة العلم أو الفن أو المجتمع ، فإذا كانت أفكاره صحيحة ، فإن هذه الوحدة لا بد أن تكون موجودة فى خبرة أعلى من المستوى الإنسانى ويكون ولاء الإنسان للحقيقة جزءاً من هذه الوحدة العليا ، وأما إذا كانت أفكاره خاطئه ، فيعنى ذلك أن هناك جزءاً من الواقع ، إذا كان قد علم به ، لبين له هذا الزيف فى أفكاره . إذن ما يبين زيف أفكاره وجود تجربة ما أعلى من تجربته ، ولا بد أن يكون تكوين العالم واقعياً طالما أنه مجمل لوقائع الخبرة . إن هناك فكرة واحدة صحيحة على الأقل ، عند القول « بأن وقائع العالم موجودة كما هى ، وبأن العالم الواقعى يبين أخطاء الإنسان ، ويجعل الخطأ ممكناً . لأن فى مثل هذا القول ، يعتمد الفرد على وجود مجمل للخبرة ، الذى يعد الفرد جزءاً منه ، لأنه لا يكون مخطئاً ، إلا عندما لا تتفق أفكاره مع الموضوع المقصود فتكون أفكاره زائفة فقط ، إذا كانت الخبرة التى يحاول الإعتماد عليها ، تحوى ضمن محتوياتها ، الموضوع الذى يخطأ فى إدراكه ، وأن الحقيقة التى لا يستطيع الوصول إليها ، تكون ملك هذه الخبرة المجملة . لذلك أيا كان صدق أو كذب « معتقد » ما ، فإن العالم الواقعى الذى يفند أو يؤكد فكرة ما ، يكون عبارة عن مجمل الخبرة كلها . وتوجد علاقة حقيقية بين حياة الفرد العملية ، ومجمل الخبرة ، طالما كان هدفه الدخول فى وحدة مع الكون كله ، لأنه مجمل الخبرة هو الذى يقصد الفرد تعريفه وخدمته فى كل أفعاله وأقواله (١) . إن مجمل الخبرة أو وحدة « مجموع الحياه » ، أو التعبير الحق عن إرادتها ، التى يعبر عنها كل إثبات لحقيقة ما ، وكل فعل مخلص ، لا بد أن يكون شاملاً وحاوياً لكل وقائع الماضى والحاضر والمستقبل ، ولذلك فإنه حقيقة أبدية أزليه (٢) .

Ibid., pp. 360-365

(١)

J.Royce : The Religious Aspect of Philosophy pp. 408-24

(٢)

ب - واقعية القضايا ومصداقيتها

وبعد أن أثبت « رويس » وجود واقعية عالم الوحدات الروحية ووحدتها ، وأن لكى يكون للولاء أساس حقيقى ، لا بد من واقعية هذه الوحدة الروحية ، وأن كل تعريف للحقيقة يفترض وجودها مسبقاً ، تحولت النظرية الأخلاقية إلى مذهب فلسفى عام ، ولم يصبح الولاء مجرد مرشد فى الحياة ، وإنما كشف عن علاقة الإنسان بعالم له حياة روحية أبدية واحدة ، تحوى كل الحوادث الزمنية ، وفيه تتحقق كل الأهداف العاقلة ويشكل مجموع كل ما تصبوا اليه البشرية . كما إتصف هذا العالم ، بأنه وعى قائم بذاته ، ويتحقق وجوده ويكتمل من إتحاد كل التضحيات المثالية والولاءات المخلصة . لذلك يرى « رويس » إمكانية وضع تعريف جديد للولاء فى العبارات التالية ، « فالولاء هو الرغبة فى إظهار الأبدى ، والتعبير عن الوحدة الواعية فوق الإنسانية فى نمط أفعال وأعمال ذات فردية » . وبتعبير أحد الفلاسفة (١) . يكون الولاء هو إرادة الإعتقاد فى شئى أبدى ، والتعبير عن هذا الإعتقاد فى الحياة العملية لإنسان ما . وبذلك التعريف الميتافيزيقى للولاء يكتمل التعريف الإبتدائى للولاء . ويشرح « رويس » هذا التعريف الجديد للولاء ، بأنه لا بد من الإعتراف بأن حياة الإنسان تستند على الإعتقاد فى مجموعه من الوقائع أو عالم من الوقائع ، يقع خارج نطاق التجربة الإنسانية العادية . وأن هذا الاعتقاد يتصف بالمصدقية ، مثل الإعتقاد فى وجود عقل الآخر ، وفى وجود الخبرات الماضية والمستقبلية ، بالرغم من عدم قدره على التحقق من مصداقية هذه المعتقدات فى تجربة فرد مفرد . ولئن كان التفسير التقليدى لمثل هذه المعتقدات ، يعتبر أنها قد فرضت على الإنسان ، من واقع مستقل تماماً عنه وعن إهتماماته وأفكاره ، فإن مثل هذا التفسير من الواضح تناقضه (٢) .

والحقيقة أن العالم الواقعى ليس شيئاً مستقلاً عن الانسان ، وتكون محتوياته ومادته من طبيعة التجربة ، ويحقق بنائه ثباتاً وضمناً للأفعال . ومثلما تبدو طبيعته قابلة للتفسير فى حدود الأفكار والقضايا والأهداف الإنسانية ، فإنها تحقق فى المقابل لأفكار الإنسان

(١) المقصود هنا "وليم جيس"

J.Royce : The World and The Individual p.I p.50

(٢)

الجزئية وحياته العاقله معناها وأهدافها (١) . فلا توجد حقيقة نظريه مجردة ، ولا يوجد واقع نو طبيعة مختلفة عن التجربة ، وتكون كل حياة واعية درجة من درجات وعى فوق إنسانى ، لا يعرف العالم الواقعى فقط ، وإنما يكون هو كل العالم الواقعى . وبالتالي يكون كل بحث عن الواقع ، عبارة عن جهد لإكتشاف الكل التجريبي ، أو التجربة المجملة التى تعد التجربة الإنسانية جزءاً منها . وأى بحث عن نسق كلى للحقيقة يجمع الحقائق العملية الجزئية ، يعد بحثاً عن الحياة المثالية الواضحة ، والتى من أجلها يقوم الإنسان بأعماله ، ولذلك أى محاولة لاكتشاف العالم الواقعى ، تعد محاولة لاكتشاف معنى الحياة الفردية ، وإن يستطيع الإنسان معرفة معنى حياته إلا فى ضوء حياة واعية ، يكون جزءاً منها ، ويتم التعبير الكامل عن أفكاره فيها ، ويكون متحقق فيها ، ما يكون الإنسان قد فشل فى تحقيقه (٢) . معنى ذلك أن عندما يفكر فرد ما فى العالم الواقعى ، فإنه يفكر فى شيء يعتبره عالمه الخاص طالما كان هذا العالم يشكل موضوعاً لأى فكرة من أفكاره . كما يعنى التفكير فى العالم ، تفكيراً فى كل نظام الخبرة ، التى ترتبط به خبرته الخاصة . ولما كانت معرفة كل النظام « لا تتحقق فى أى لحظة ، ويعتمد الإنسان على الذاكرة المعرضة للخطأ ، وعلى إنتظار التجربة المستقبلية ، وليس لديه وسيلة للتحقق من تجربة الأخر ، إلا بتطبيق الإختبارات الإجتماعية المعرض للخطأ أيضاً ، وعندما يعتمد على مناهج العلم التجريبي ، لا يكون لديه لإنتاجات لحظيه عملية ، فإن الانسان ما هو الا كائناتاً فان معرض للأخطاء ، يحاول شق طريقه فى مجاهل الخبرة .

لذلك كل محاولات التذكر والتنبؤ والإستفسارات عن الموضوعات ، تكسب قيمها حسب مكانه بوصفها أجزاء فى مشروع شامل ، يتمثل فى المحاولات النشطة التى يبذلها الفرد ، ليجد مكانه فى العالم الواقعى . إذن يستطيع الفرد معرفة وتحديد عالمه الواقعى ، بما يدركه فى حدود تجربته ، ويستطيع تحديد مكانه ، بإكتشاف موقعه فى نظام التجربة الكلى والشامل . لأن المقصود بكلمة « واقعة » ، شيء إكتشفه فرد ما ، أو يمكن اكتشافه . وما يسمى « واقعة فعلية » ، يعنى أنه شيء وجده فرد ما ، كتعبير عن إرادته أو عن غرض لديه

J.Royce : The Philosophy of Loyalty , pp.360-363

(١)

Ibid., p.364

(٢)

إن ما يعد واقعاً ، يكون موجوداً بوصفه محتوى حاضراً لدى كائن عاقل . لذلك يكون الإستفسار عن العالم الواقعي عبارة عن سؤال عن محتويات التجربة ، سواء كانت إنسانية أو فوق إنسانية ، ويكون الإستفسار عن الواقع ، عبارة عن جهد لاكتشاف خبرة العالم وماذا تكون . وبذلك يكون الإنسان في كل حياته الإجتماعية وعلومه ، محاولاً إكتشاف الحياة الواعية الكلية ، التي تشكل وقائع العالم محتواها . من جهة أخرى لا يستطيع الفرد البحث والإستفسار عن وقائع العالم ، دون أن يكون لديه افكاره الخاصة عنها ، فإذا كانت أفكاره صحيحة ، فإنها تنجح في الاتفاق مع وعى العالم الذي تدركه أو قد تحدده هذه الافكار . ولما كان النجاح واقعة تجريبية بدوره ، فإنها ليست واقعه في تجربته الفرد الخاصة . ولذلك ما يعتبره فرد ما نجاحاً ، في أى لحظة من لحظات حياته ، يفترض وجود حياة واعية شاملة تحوى أفكاره وجهوده ، وتحوى في نفس الوقت كل وقائع العالم التي يفكر فيها ، وتراقب نجاحاته ، بنظره مجملة لوقائع العالم ومحاولاته لاكتشافها . وأما بالنسبة للأفكار الخاطئة عن العالم أو عن أحد وقائعه ، فإن إمكانية الخطأ تتضمن نفس العلاقة بين العالم والذات ، في حالة الأفكار الصحيحة . لأن الفرد يخطأ دائماً في الموضوع الذي يكون قد قصد الإتفاق معه ، ويكون الفشل بسبب قصد الفرد وسعيه لغايه معينة . وبسبب إخلاصه للحقيقة الكلية للعالم . لذلك عندما يخطأ ؛ فإنه يفشل في تفسير مكانته في وعى العالم الذي يحاول معرفة حياته ، ويكون فشله بدوره واقعه أيضاً في هذا الوعى الكلى . ولما كان كل بحث عن الحقيقة ، يرتبط بالإخلاص فإن الباحثين عن الحقيقة مخلصون . وبالتالي إذا كان الفرد مخلصاً وأخطأ ، أو إعتقد خطأ أنه على صواب ، فإن الخطأ يكون واقعة في وعى كلى ، يحوى محاولاته المخلصة للوصول إلى الحقيقة ، ويرى هزيمته في تحقيق الاتصال بها وبالقضايا الحقيقية ، ويدرك ولائه ، ويحدد لمحاولاته الجزئية مكانها المتفرد في مجمل حياته أو في نسقه العالى . لذلك يعد الفشل ، نوعاً من النجاح ، لأنه عبارته عن مسعى ، يسلكه الفرد لتحديد مكانه في وحدة الحياة الواعية للعالم . وبذلك يؤكد

« رويس » أن المخلص سواء أصاب أو أخطأ فى التفصيلات ، فإن بحثه المخلص يؤكد واقعة أنه فى وحدة مع الحياة الواعيه للعالم . وكل منكر لهذه الوحدة يؤكد إثباتها بصورة جديدة (١) . وبذلك يكون كل بحث عن الحقيقة مؤكداً لوجود وعى شامل يحوى العالم الواقعى .

وهكذا يرى « رويس » أن وجود هذه النظرية « للحقيقه » والتي ظهرت نتيجة إستنتاج منطقى محكم ، ووضحت علاقة كل فرد بالحقيقة سواء عرف الواقع أو فشل فى معرفته وسواء أصاب أو أخطأ فى أحكامه ، تقدم إجابات كافيه لتساؤلات المخلصين ، وتبين لهم أنهم محقون فى إفتراض صدق قضاياهم الشخصية ، وصدق قضية قضاياهم « الولاء للولاء » . فلما كان الولاء خدمة لقضايا فوق إنسانية ، تتعالى عن التعبير عن نفسها فى حياة الفرد الخاصة والمحدودة ، وكان للقضايا حياة ، فإن كل الحياة الأخلاقية تكون فى وحده مع حياة فوق إنسانية ، تشمل الأفراد جميعاً ، وإذا ما أخلص الناس لقضاياهم فإنهم يحققون النجاح ، الذى يعد لمحه لهذه الوحدة الكلية للحياة . كما يؤكد « رويس » أن هذه النظرية قد جاءت إشباعاً لحاجات أخلاقية ومنطقية ، وأثبتت أن العالم الحق عالم المخلصين وأن الولاء ليس مجرد وهم أو زيف ، وقضاياه قضايا واقعية وحقيقية فى الكون وأن للكون نفس الوحدة التى يسعى إليها الولاء للولاء ليعبر عن نفسه فيها ، والتي يعبر عنها المخلصون فى أفعالهم ويسعون إليها (٢) .

ومن الواضح أن « رويس » قد وضع تعريفين للولاء ، الأول أخلاقى والثانى دينى ، الثانى مكمل للأول ، وكان « رويس » قد قصد المزج بين الأخلاق والدين أو تأكيد الصلة بينها ، فإذا كان الولاء يعنى الرغبة فى إظهار الحقيقة الأبدية فى الأفعال ، فإن ما يكون جديراً بولاء الإنسان ، ينبغى أن يتحدد من وجهة نظر كلية ، وإذا كان الولاء يعنى الإخلاص الإرادى من قبل فرد ما لقضية ما ، فإن القضية المثلى فى تلك الحالة ، والتي يتحقق فيها كلا التعريفين تكون « قضية دينية » ، أولها صبغة دينية ، فهى القادرة على تأكيد الذات من جهة ، وإنكارها فى نفس الوقت ودمجها فى ذات أعلى منها من جهة أخرى . وبذلك تصبح فلسفة الولاء ما هى إلا فلسفة دينية .

Ibid ., p. 372.

(١)

Ibid ., p.376.

(٢)

ثالثاً : من المحبة الى الولاء

أ - الحب فى تعاليم « السيد »

إتجه « رويس » لتطبيق فلسفته فى الولاء ، والإستعانة بها ، لشرح وتفسير معنى « المحبة » فى المسيحية ، فيرى « رويس » أن الحب باعتباره من أسس العقيدة المسيحية ، قد ظهر فى تعاليم وأقوال السيد متصفاً بصفتين ، الأولى أنه قد ظهر فى الأفعال وموعظة « الجبل » مؤكداً على السلوك العملى والبطولى والإيجابى تجاه الحياة ، والصفة الثانية أن مسائل تطبيقه فى الحياة العملية ، قد تركت غامضة وغير واضحة ، فجاءت الصفة الثانية متعارضة مع الأولى وأصبح الإتجاه العملى والإيجابى للحب متضارباً ومتعارضاً . ولئن كان « السيد » قد ترك عمداً تلك المسائل التطبيقية بدون حل وغامضة ، حتى يظل باب الإجتهد مفتوحاً ، إلا أن الإجتهدات التى أضافها المفسرون فيما بعد ، قد جاءت بعيدة ومنفصلة عن المقاصد الحقيقية « للسيد » . والحقيقة وبصرف النظر عن مسألة إتفاق أو إختلاف تلك الإجتهدات مع مقاصد « السيد » ، إلا أنها أصبحت تشكل مساهمة أساسية فى العقيدة المسيحية . وإذا كانت تعاليم « السيد » ، تمثل بداية للعقيدة ، فإن الإجتهدات والتفسيرات وبالأخص تفسيرات « بولس » ، تمثل تكملة ضرورية لها . ولئن كان « بولس » قد أعلن أن الطول والتفسيرات التى قد جاء بها ، لمذهب الحب المسيحى ، لم تكن من إبتكاره الشخصى ، وإنما مصدرها « روح السيد » المرفوع فإن ما يمثل أهمية ، أن هذه التفسيرات البولسية ، كانت ذا تأثير على معنى وتطور الفكر المسيحى (١) .

ومن الملاحظ بالنسبة للصفة الأولى للحب المسيحى ، أن هناك تفسيرين رئيسيين له ، يوحد الأول منهما بين الحب ونكران الذات والغيرية ، ويربط الثانى منهما بينه وبين السلوك البطولى والإيجابى . أعتبر أصحاب التفسير الأول ، أن المقصود من « إدارة الخد » ، يتمثل فى المثل الأعلى القائل ، عش من أجل الآخرين ، وعدم مقاومة الشر ، وهجر متع

J.Royce : The Problem of Christianity , P.I p.78.

(١)

الحياة ، أى معنى التضحية ونكران الذات . أما التفسير الثانى ، فيعارض الأول ، ويبين أن الحب كما جاء فى تعاليم السيد والأمثال ، لا يعنى نكران الذات أو غيرية مطلقة ، بقدر ما يعنى البطولة والإيجابية . والواقع أن هذا التفسير الإيجابى للحب المسيحى ، يتفق مع روح التعاليم والأمثال . فإذا كان من واجب الفرد حب الجار ، لأن الله يحب كل فرد ، فعمنى ذلك إن لكل فرد قيمته ، على الرغم من كونها مستمدة من الله ، ومن محبة الله له . لذلك لا يعد نكران الذات فضيلة أساسية فى المسيحية ، ولا يبتهج « المسيح » بنكران الفرد لذاته ، وإنما يدعو كل فرد للإستمتاع بالحب الإلهى ، وينشره بين الآخرين . ولئن كانت رواية « الإنجيل » ، عن العبد الذي لا يصفح عن إخوانه بالرغم من تمتعه بالعفو الإلهى ومحبة الله ، تبين كيف يفقد الحب قيمته ، إذا ما أنفصل عن القول بالمساواة بين الكل ، فى الحب الإلهى ، إلا أن قصة « الإنجيل » عن الموهوبين ، تبين بوضوح كيف أن الحب الإلهى ، يطالب الفرد بأن يجد التعبير المناسب والإيجابى عن قيمته الفردية ، حتى يعود إلى الله رابحاً . لذلك لا يمكن أن يكون الحب مجرد تعبير عن نكران الذات أو الغيرية بالقول « بأتى لا شىء » ، والآخرين لهم حق النجاه والخلص ، لأن الله يحبنى ، ويطلبنى بأن أكون شيئاً . كذلك لا يمكن أن يكون مجرد تسامح عن الأخطاء البشرية . ولئن كان المحب كما صوره « السيد » يجب ألا يقاوم الشر ويدير الخد ، إلا أنه يفعل ذلك ، من الثقة بأن الله يرى الكل ، وينصر عبده ولما كان المحب يتوقع ، النصر النهائى للخير ، فإن حبه ، يعد مساهمة إيجابية فى النصر النهائى لإرادة الله ، إن عدم مقاومة الشر ، تكون إحتقاراً لقوى الشر ، وما يشعر به المحب من شفقة ورتاء ، يعد مساهمة فى النصر الإلهى (١) .

وأما عن الصفقة الثانية لمذهب الحب المسيحى كما ورد فى تعاليم السيد ، فقد لا تعد صفة ، بقدر ما تعد إشكالية عامة تتعلق دائماً بمسألة العلاقة بين النظر والعمل ، أو بين المثل الأعلى ، وبين ترجمته إلى قواعد سلوكية محددة . فلقد ترك السيد أقواله عن الحب دون ترجمة عملية لها ، أو صبهما فى قوالب سلوكية معينة ، الأمر الذى أدى إلى ظهور مشاكل عديدة ، وإلى وجود مسائل عديدة ظلت معلقة دون حل . خاصة عند التساؤل عن

Ibid. p. 80.

(١)

السلوك الواجب إتباعه من جانب المحب تجاه المحبوب . فلا يرتبط الحب بالشعور الباطنى للمحب فقط ، وإنما يتصل أيضا بالخدمات والواجبات التى يحب القيام بها تجاه المحبوب . ولما كان المسيح قد حدد الله والجار كموضوعين للحب ، فإن السؤال أصبح يدور حول الأعمال التى يجب أن يقوم بها المحب ، للتعبير عن حبه لهذين الموضوعين .

ويرى « رويس » أن ربما تكون الإجابة واضحة بالنسبة لحب الله ، فلقد حددتها العقيدة ، بنقاء سريرة المحب والولاء الكامل لله ، والثقة والخضوع التام للإرادة الالهية . أما مسألة حب الجار ، فلقد تركها « السيد » غير محددة ، ويمكن حلها بالإعتماد على روح المحبة ، وما يتفق مع التعاليم بوجه عام . فيصبح واجب الفرد ، إتباع جميع الوسائل المناسبة ، التى تساعد الجار على محبة الآخرين ، فواجب المحب الأول توسيع « مملكة السماء » وتعليم المحبة ونشرها ، وبذلك تصبح محبة الجار واضحة ولا تمثل إشكالية . ولكن وبالرغم من صحة هذا التفسير ، يظل هناك جانب يمثل إشكالية تتعلق بالسلوك العملى الخير ، وبمسألة الحياة الخيرة بصورة عامة . فلقد ترك السيد للمحب إتخاذ القرارات العملية فى مسألة نوع الفعل الخير ، ولئن كان المسيح قد أكد على ضرورة إعتماد هذه القرارات على القلب دون العقل ، إلا أنه لم يضع أى قواعد للإصلاح الإجتماعى ، وأن كان قد عرض بعض الشروط المحددة لحياة المحبة ، إلا إنها لا تعد شروطاً كافية . لذلك تمثل الحب فى تحقيق حاجات الجار من الطعام والكساء ، ولما كانت الحياة ليست قاصرة على الطعام والكساء ، فإن اشباعهما ، لا يحقق للجار كل حاجاته الضرورية . فلئن جاء الحب موحداً « روح المحب » بالإرادة الالهية ، إلا أن وسائل التعبير عنه ، تجاه الجار جاءت محيرة . فالجار كائن غامض ، ولا يعرف الفرد خير جاره او ما يسعده (١) .

ب - الحب المسيحى عند « بولس »

واما بالنسبة لأقوال « بولس » فى المحبة ، فلقد جاءت متفقة مع أقوال السيد وروحها العامة ، ولكن صاحبها دخول كائن جديد له نوع من الوجود الموضوعى والواقعى . فإن

Ibid.,p . 91.

(١)

كانت التعاليم تتعامل مع موضوعين للحب الالهي ، هما « الله والإنسان » ، فلقد أضاف « بولس » لهذين الكائنين كائناً ثالثاً ذا طبيعة مشتركة . وإعتبر « السر » طبيعته وإستخدم عبارات مجازيه للتعبير عنه ، فالكائن الجديد ، كائن مشترك ، « جسد المسيح » ، أو الجسد الذي يمثل « المسيح » المرفوع رأسه ، وهذا الكائن المشترك هو المجتمع المسيحي ذاته . وبالرغم من إن وجود هذا الكائن ، وظهور فكرة المجتمع ، قد شكلاً بدايةً متجددة في العقيدة المسيحية ، وأصبحت من الحقائق المألوفة ، إلا أن دارسي المسيحية ، تجاهلوا هذا التحول الخطير ، الذي أحدثه وجود هذا الكائن في صيغة الحب المسيحي عند « بولس » . فالحقيقة أن وجود هذا الكائن المتحد مع الواقع بصورة ما ، جعل مذهب الحب عند « بولس » أكثر واقعية وحركه عنه كما جاء في « الأمثال » . وبالرغم من لجوء « بولس » إلى الصور المجازية ، إلا إنها قد قدمت شرحاً ووضوحاً لمذهب المحبة ، ساعد علي تحقيق صلة مباشرة بين مجتمع المؤمنين وحياتهم الدينيه (١) . إعتبر « بولس » الكائن المشترك ، سر المجتمع المسيحي ، وأنه أكثر واقعية من الجار الفرد ، وإعتقد بمعرفته من وحى أوحى به له روح السيد . والحقيقة أن حقيقة هذا الكائن المشترك ، تعبير من أهم الحقائق الدينية والأخلاقية ، فلقد وحدت « المجتمع » بهدف روي إيجابى نشيط ، وجعلته كائناً أكثر واقعية ، وأقل غموضاً من فكرة الفرد أو الجار ، وقادراً على محبه أعضائه ، وعلى أن يكون موضوعاً لمحبتهم . وبالرغم من جدة فكرة المجتمع المسيحي أو الكائن المشترك ، في تجربة « بولس » الدينية فنظر لأصل المجتمع كنوع من الإعجاز ، وجعل بدايته وحياته اليومية مرتبطة بروح « السيد » المرفوع والمبعوث وعد الكنيسة سراً ، إلا أن مذهباً في المجتمع جاء عملياً وواقعياً وواضحاً ، بصورة جعلته قادراً علي تصور مذهب الحب المسيحي ، تصوراً عملياً نشيطاً إيجابياً بطولياً ومفسراً لكثير من المسائل ، التي تركتها التعاليم غامضة (٢) . وأصبح الجار عضواً في المجتمع المسيحي ، ولما كان هذا المجتمع واقعياً ومرتبياً وموجهاً بروح « السيد » ، فإن كل كلمة عن حب الجار عند « بولس » ، تصبح ذا معنى إنسانى مباشر ، وملهمة بروح الهية تجاه حب الجار ، فحب المجتمع حب الجار . ولئن إعتبرت الأمثال حب الله للجار ، برهاناً على القيمة اللامحدودة للفرد ، فإن « بولس » قد وجد في حب المسيح للكنيسة ، دليلاً

Ibid ., p. 92.

(١)

Ibid ., p. 95.

(٢)

على أن كلاً من المجتمع ، والعضو الفرد ، موضوعان لعناية إلهية لا محدودة ، توحد وترتبط بينهما ، فيتحقق للفرد خلاصة فى التوحد والوحدة مع الكنيسة ، ولا حياة له بدون الروح الإلهى والمجتمع . وبذلك يأخذ الحب المسيحى عند « بولس » صورة الولاء (١) .

ويشرح « رويس » تأويل المحبة بالولاء ، بأن الولاء قد ظهر فى التاريخ قبل ظهور المسيحية وكان منتشرأً بين الشعوب التى تؤمن بضرورة حب الفرد لمجتمعه والتضحية من أجله . ولذلك عد الولاء فضيلة . كذلك لما كان من طبيعة الولاء الانتشار ، ويميل المخلص إلى توسيع ذاته ومجتمعة ، فإنه أدى إلى زيادة الاتصال بين أجزاء العالم ، بل وإستطاع الرواقيون تصور المجتمع العالمى الذى يضم الإنسانية . وبالرغم من أن مفهوم الولاء كان مفهوماً نظرياً مجرداً ، إلا أن روح الولاء لم تكن بعيدة عن روح الدين ، ويميل كما يميل الدين إلى أن تجعل العالم الاخلاقى ، عالماً ذات وحدة إلهية . فكان الولاء قبل ظهور الفضائل المسيحية منبعأً للفضائل لدى الأمم المتحاربة ، وأمدتها بالمثل العليا للبطولة ، وبانبل التصورات عن مصير الفرد . ولئن كان الولاء فى تلك المراحل التاريخية الأولى ، ما هو إلا تعبيراً عن إشباع الفرد لحاجاته الضرورية ، أو المقصود به الولاء للأسرة الكبيرة ، إلا أنه كانت له مكانته الأخلاقية والروحية (٢) . ويؤكد « رويس » أن الولاء قد ظهر فى تعاليم « بولس » فى صور عديدة . فلقد أنشأ حياة جديدة ، بظهور مجتمع يحثك أفراداه فى حياتهم العملية اليومية ، بالروح الإلهية ، فتحافظ على صلتها بالفضائل العسكرية ، وتتصف بالنشاط والبطولة . ويستمد الفرد سعادته من الصور المجازية ، وعد الولاء فضيلة يتصف به كل محب للنظام ، ومحترم للقانون والسلطة . وعند تفسير « بولس » لأقوال السيد ، ظهر الولاء بوصفة محققاً لتعاليم السيد عن المحبة . لأن فى نظر « بولس » يوحد الولاء بين كل الصفات الإجتماعية النضالية وبين الحب الأخوى . فلقد كان الحب للفرد الإنسانى ، والولاء المجتمع الإلهى لكل المؤمنين فى نظر بولس كلاً واحداً ، ويفسر كل منهما الآخر (٣) . وبذلك يصبح الحب عند « بولس » حباً للجار وإخلاًصاً للمجتمع فى أن واحد . ولا ينفصل أحدهما عن الآخر . فلا يتحقق الولاء للمجتمع ، إلا بمحبة الآخر ، ولا تتحقق محبة الآخر

Ibid ., p. 89.

(١)

Ibid ., p. 99.

(٢)

Ibid ., p. 101.

(٣)

إلا من الأخلاص لجماعة المؤمنين . فإذا تنافس « الكورنثيون » وتخاصموا ، يحدثهم « بولس » عن جسد المسيح ، والوحدة الروحية لأفراد مجتمعه . من جهة أخرى ، عندما كان يفسر ويشرح الولاء للكنيسة ، كان يصور كرامة المجتمع الروحي ، فى ضوء جمال ورقة المحبة الأخوية . فيطالب بتحقيق المحبة بين الإخوة بالولاء لجسد المسيح أو مجتمع المؤمنين ، وعند تفسير الولاء للكنيسة ، يجعل كرامة المجتمع ووحده مستمدة من الحب الأخوى . إن سر قوة « بولس » التبشيرية يكمن فى التوحيد الكامل بين الإخلاص للمجتمع والمحبة والإعجاب بالأفراد . يتحدث فى بداية الرسائل عن الولاء لجسد وروح المسيح أو مجتمع المؤمنين ، ويتحدث فى ختامها عن الأعضاء الأفراد وعن إهتماماتهم الشخصية فجمع بين الميتافيزيقا والواقع ، وبين الصور المجازية عن جسد وروح المسيح والإهتمامات العملية للأفراد ، فالولاء والمحبة صنوان لمذهب الحب عن « بولس » .

وأما بالنسبة لسلوك الفرد تجاه جاره ، فإن بولس لم يقدم إجابته فى أى مناسبة بها إشارة لعلاقة الجار بالمجتمع . إذ كان يتحدث عن الجار باعتباره عضواً فى مجتمع ، ولذلك إعتبار إجاباته عبارته عن نصائح واقعية عملية ، ومحددة طبقاً لكل حالة فردية . ولأن المجتمع كما صورته « بولس » ، مجتمع الكنيسة الصغير ، الذى يتحقق فيه الإتصال المباشر بين أفرادها ، ويتحقق الإنسجام بينهم من خلال نظم محددة ، فإنه لم يلتفت للخلافات التى تنشأ بين أفرادها . ويسبب الحياة الإجتماعية لكل الأفراد ، أصبحت الحاجات المادية والأعمال وسعادة الأفراد ، وقائع عملية للخبرة المشتركة للكنيسة ، فإكتسب مذهب « بولس » فى المحبة ، صفة الثبات والإستمرارية ، وتطبيقات عملية واقعية فى حياة المؤمنين . وأصبح المثل الأعلى ، الذى قالت به الأمثال حياة مرئية واقعية معاشه على الأرض . وياتت نصائح المحبة هى « عيشوا معاً فى الكنيسة ، لكى تستحق الكنيسة حب المسيح ، وساعد الجار على أن يصبح عضواً صالحاً فى الكنيسة » (١) .

Ibid ., p. 103.

(١)

والحقيقة أنه بالرغم من إتساق تفسير الحب المسيحي عند « بولس » بالولاء ، مع روح المجتمع المسيحي الأول ، ومساهمة هذا التفسير فى توضيح مذهب المحبة الذى تركه السيد غامضاً ، إلا أن « رويس » لم يوضح سبب تأثر « بولس » بفكرة الولاء للمجتمع المؤمن . فلقد تناول الفكرة من خلال رسائل « بولس » ، دون تفسير لأصلها النفسى وجذورها عند « بولس » ، لم يتساعل عن مدى أصالة فكرة الولاء للمجتمع فى العقيدة المسيحية ، بمعنى هل جاء إهتمام « بولس » بالولاء نابعاً من صلب العقيدة المسيحية أم جاء هذا الإهتمام بسبب عوامل أخرى ؟ فلقد كان « بولس » قبل تحوله الى المسيحية منتبياً لليهودية ، ومؤمناً بفكرة إنتصار الله فى المجتمع ، الأمر الذى يمكن تفسيره بأن « بولس » قد قصد المزج بين الفكر اليهودى والدين الجديد ، أو أنه لم يستطع التخلص من تراثه النفسى السابق على تحوله للمسيحية ، فجاء بفكرة الولاء للمجتمع وبررها بفكرة الكائن الثالث .

ومن الواضح أن « رويس » لم يتبع منهجاً نقدياً مع النصوص التى إعتد عليها ، فلم يبحث عن أصلها التاريخي ، كما يفعل المفسرون للأديان ، ولم يتحقق من صحة القصص الدينية التى إعتد عليها ، وإكتفى بأن عد أقوال « بولس » ورسائله ، ميراثاً ثابتاً للعقيدة المسيحية . لذلك لم يأخذ موقف الناقد التاريخي كما فعل « فولتير » بالنسبة للمسيحية ، أو « إسبينوزا » بالنسبة لليهودية وإنما اكتفى بان اعتبر النصوص المتعارف عليها ، تمثل صلب العقيدة وجوهر الدين . ولأن أمكن تبرير ذلك الموقف ، بأنه إعتد على « روح النص » ، بدلاً من الإعتداع على « الحرف » ، أو على المضمون دون الشكل ، وإنباطن دون الظاهر إلا أن هذا الموقف كان يعد موقفاً صحيحاً ، لو أن « رويس » لم يستعن بنصوص مباشرة من رسائل « بولس » أو من الكتاب المقدس ، ففى تأويله للحب المسيحي ، من الواضح إعتماده على « الإنجيل » فى عرض مذهب الحب عند « السيد » ، وإعتماده على « رسائل بولس » ، وتحديد أرقام صفحاتها ، وأحياناً ينهي تأويله ، بعبارات من الكتاب المقدس أو من الرسائل ، الأمر الذى يجعل للنص دوراً أساسياً ، ويجعل الشكل مكملًا للمضمون . وكذلك يمكن القول أن تعامل « رويس » مع مذهب الحب عند

« بولس » ، كان براجماتياً ، فلم تتم مناقشة الأساس الميتافيزيقي لمذهب المحبة عند « بولس » ، أو تحليل مدي صلابة فكرة « الكائن الثالث » ، أو القاء الضوء على المشكلات اللاهوتية التي أثارها تلك الفكرة في الفكر المسيحي ، فكان « رويس » لا يبحث عن أصل الفكرة ومدى صلاحيتها ، وإنما تم الإكتفاء بأنها فكرة ، تؤدي إلى ترجمة المحبة عند بولس إلى الولاء وكأن وجود « الكائن الثالث » ضرورة منطقية أو أخلاقية .

إن تأويل الحب المسيحي في ضوء فلسفة الولاء ، أمر يجعل الفكر قائداً للنص ، ففلسفة الولاء هي المصب النهائي الذي يجب ان تفسر في ضوءها تعاليم السيد ورسائل « بولس » ولذا لا يعد ذلك تفسيراً للدين أو للوحى بقدر ما يجعل الدين مؤيداً للفلسفة ، وكان الفكر أسبق من الوحي ، ويجب أن يفسر الوحي في ضوءه . ولذا يمكن القول بأن الهدف من التأويل هدف فلسفي ، بمعنى أن تأويل الحب بالولاء ، لا يعد شرحاً للدين بقدر ما يحول القضية ، إلى فلسفة إجتماعية . وإن كان « الحب » جوهر المسيحية ، « ومملكة السماء » هي المجتمع ، فإن تأويل الحب بالولاء يتفق مع فكر « رويس » العام . فإذا كان المجتمع محور فلسفته ، فإن الولاء أنسب فضيلة لحل إشكالية الوحدة والكثرة ، والإرادة الفردية والإرادة الجمعية ، من جهة أخرى يمكن إعتبار الهدف من التأويل هدفاً دينياً ، فربما قصد « رويس » حل إشكالية الحب المسيحي وترجمته إلى فضائل عملية ، وبذلك ينزل الحب من السماء إلى الارض ، ويشعر الفرد بقيمة الحب المسيحي وفائدته في الحياة العملية ، فيتم بعث الروح المسيحية من جديد ، وتخرج من عزلتها ، وتصبح ديناً عملياً ، يشعر به الفرد في حياته اليومية . والحقيقة فلئن صح هذا الدفاع عن المسيحية ، إلا إنه دفاع يفرغ المسيحية من محتواها الوجداني ويحول الحب من عاطفة دينية ، إلى نوع من الإلتزام الإجتماعي ، فالولاء في جوهره إلتزام إجتماعي ، يفرض واجبات معينة على الفرد تجاه المجتمع ، ولئن كان للولاء جانبه الذاتي ، فالفرد يعجب بالقضية التي يختارها (١) ، إلا أن كلمة الولاء نو مضمون إجتماعي ، يغلب عليه الطابع الإجتماعي الإلزامي اكثر من الحماس العاطفي والرغبة الذاتية ، بل ويمكن القول بأن الإلزام أو الولاء بصورة عامه ما هو إلا صورة أخرى

J.Royce : The Philosophy of Loyalty (1908), The Macmillan Company , New York, 1930 . p. 15 . (١)

« للقانون » او للشريعة اليهودية . فهل الهدف من التحويل للحب دينى أم خلقى ؟ .

والحقيقة أنه يمكن إعتبار فلسفة الولاء بصورة عامة ، عبارة عن بحث عن أصل الواجب الكانطى ، أو محاولة لرد الواجب الكانطى إلى أصل « هيجلى » فيوضح الولاء للفرد واجبه ، وما ينبغى عليه سلوكه ، ويوحد بين الإرادة الذاتية والإرادة الجمعية ، أو بين تأكيد الذات وإستسلامها ، أو بين الداخل والخارج . ويعتبر سلوك الولاء ، السلوك الموحد ، والحل الأمثل للتعارض بين موقفين متباينين ومتباعدين ، أو حل لموقف أخلاقى محير يواجه الفرد ، فعندما لا يجد حلاً لهذا الموقف فى خبراته السابقة ، أو فيما يكون قد تلقاه من تدريب إجتماعى ، يلجأ للخارج لإكتساب الخبرة والنصيحة ، ثم يرتد إلى ذاته مرة أخرى ، ليخرج بحل موقفه الأخلاقى المحير^(١) . وبذلك ينتج سلوك الولاء من مارسة الفرد للجدل ، من الداخل إلى الخارج ، ثم إلى الداخل مرة أخرى ، ويصبح سلوك الولاء عبارة عن مركب جديد ، فتراث الفرد يقترح حلاً ، ونصائح الآخرين تقدم حلاً آخر ، ثم يرتد الفرد إلى الذات ، ويستطيع معرفة واجبه الذى يمثل خيره الأقصى وخير الآخرين . وإذا كان الولاء أصل الواجب ، فأصل الولاء التناقض ، أو ينتج من إرادتين العامه والخاصة ، أو من موقفين متعارضين ، وبذلك يصبح الواجب الكانطى ، هيجلى المنبع ويكتسب حركة جدلية ، وصيغة عملية واقعية ، ويفقد صرامته وجموده ، ولئن كان يرتد إلى الذات العاقلة فى النهاية ، وينبع منها ، إلا أنه يكون قد حوى فى باطنه المواقف والفرص الإجتماعية المتغيرة . أو كأن الإرادة الجمعية ، تمثل الجانب السالب ، أو تعد مرحلة من مراحل بناء الواجب وتتخلص الإخلاق الكانطية من الذاتية البحتة وبذلك تعتبر فلسفة الولاء ، وقضية الولاء للولاء ، تطويراً لبدأ الواجب عن كانط ومدته بمنهج هيجلى ، أو قد تعتبر محاولة للتوفيق بين « كانط وهيجل » . الحقيقة سواء كانت فلسفة الولاء حلاً لمشكلة كانطية ، أو توفيقاً بين كانط وهيجل فإن كلا الامرين يتسقان مع الاتجاه العام لفلسفه « رويس » .

Ibid ., p.p . 38 - 42.

(١)

وإذا كانت قواعد الواجب عند كانط تتصف بالعمومية والتجريد والمعقولية والإنسانية (١) فإن سلوك الولاء يكتسب نفس الصفات ، فالقضية التي يخلص لها الفرد ، قضية إجتماعية ، يقدمها المجتمع ويشارك فيها الآخرون ، وتوحد سلوكهم ، ويساعد المخلص الآخرين لتحقيق ولائهم وبالتالي خيرهم . ولقد جاء معيار التمييز بين القضايا الصالحة المستحقة للولاء ، والقضايا الفاسدة معياراً « كانطياً » ، فإذا كان من قواعد الواجب عند « كانط » ، « إفعل بحيث تعامل الآخرين كغاية وليس كوسيلة (٢) » ، وكانت القضية الفاسدة هي ما تحطم ولاء وخير الآخرين ، فالقضية الخيرة والمستحقة للولاء ، هي تلك التي تسعى لخير الآخرين وتنتظر لهم كغاية . كما تظهر قاعدة التجريد الكانطية للواجب (٣) ، في إعتبار القضية العامة والمستحقة للولاء ، هي قضية الولاء للولاء ، وتظهر قاعدة التعميم في مساعدة الآخرين على تحقيق خيرهم الاقصى ، كخاصية مميزة لسلوك الولاء ، فالولاء الحق يحقق صالح الكل . من جهة أخرى وبالرغم من التشابه الواضح بين سلوك الولاء والسلوك القائم على مبدأ الواجب الكانطى ، إلا أن سلوك الولاء تغلب عليه الصبغة الإجتماعية وتحتل الإرادة الجمعية مساحة أكبر فى السلوك ، فيقترب من الحياة العملية التي غالباً ما تهمل فى الأخلاق الكانطية ، فسلوك الولاء لا يعتمد على العقل فقط ، أو على المنهج الإستدلالي الفعلى ، وإن كان التبرير العقلى للقضية المستحقة للولاء ضرورياً ، ولا ينبع من الطبيعة العاقلة فى الإنسان فقط ، أو من الذات فقط ، وإن كان لا بد من إتفاق القضية المستحقة للولاء ، مع طبيعة الإنسان ، وأن تحظى باعجاب الفرد بها . ولا ينتج سلوك الولاء من مجرد تطبيق مجموعة من القواعد العقلية الجامدة ، وقياس الفعل عليها ، وإن كان يعتمد على معيار للتمييز بين القضايا الخيرة والشريرة . إن سلوك الولاء عند « رويس » ، يقوم على العلاقة الجدلية بين الذات والمجتمع وبين الإختيار والإذعان . فإذا كان التوحد عند « كانط » يتم من خلال مبادئ العقل ، ومبدأ عدم التناقض ، أو الطبيعة العاقلة عموماً ، فالتوحد فى فلسفة الولاء يتم من خلال السلوك التوافقى ، الذى يحقق ذاته

(١) إمانويل كانط : تأسيس مستأفزيقا الأخلاق ، ترجمة د. عبد الغفار مكوى ، الدار القومية للنشر ، القاهرة ١٩٦٥

ص ٤٤ - ٦٢ .

(٢) المرجع السابق ص ٧١ .

(٣) المرجع السابق ص ٧٣ .

وحرية إختيار الفرد ، وفى نفس الوقت توافقه مع الجماعة والإنسانية عموماً ، والإذعان للإرادة الجمعية . بذلك تحل مشكله الحرية الأخلاقية ، ولا يصبح حلاً ذاتياً أو عقلياً ، وإنما حلاً عملياً ، يجمع بين الداخل والخارج .

والحقيقة أن فلسفة الولاء ، تعتبر الواجب الأخلاقي عملية جدلية مستمرة أو حواراً مستمراً بين الداخل والخارج ، فلا تطالب الفرد بالإلتزام بتراث ثابت من المبادئ والقواعد الأخلاقية ، وتطلب من الفرد محاكاتها ، كما تفعل الأخلاق التقليدية ، وإنما تضع فى إعتبارها الظروف الإجتماعية المتغيره ، فلا تجعل الفرد مسجوناً فى زنزانة العقل ، أو التراث أو الدين ، فهى فلسفة حية متطورة ، تتلون بتلون الظروف الإجتماعية والمواقف المستجدة ، تأخذ بنصيحة الآخرين ، وإستشاراتهم ، ولا تلتزم بها ، أو تردها كما هى ، وإنما تدخل فى حوار معها ، فيتفاعل الرأى الآخر مع الذات ، والعام مع الخاص ويظهر سلوك جديد أقرب الى الابداع . فسلوك الولاء يتصف بالأصلالة والخبرة ، يجمع الماضى بالحاضر، والقديم بالجديد ، ولا يعنى إتصاف فلسفة الولاء بالتطور هدماً للقيم الأخلاقية القديمة ، أو وصفها بأنها أخلاق نفعية ، تتعامل مع الواقع والنتائج كما يفعل الإلتجاه الغائى فى الأخلاق ، وإنما هى فلسفة تقف وسطاً بين إتجاه البواعث والإلتجاه الغائى فى الأخلاق ، فهى فلسفة إن كانت جنورها فى الماضى وفروعها فى الحاضر ، فثمارها فى المستقبل .

وأما بالنسبة لنظرة فلسفة الولاء « للضمير » ، فإنها لا تختلف كثيراً عن النظرة التقليدية والشائعة للضمير بجوانبه الثلاث الإدراكي والنفسى والإجتماعى . وإن كان ربط ضمير الفرد بالقضية يحقق الغلبة للجانب الإجتماعى على الجوانب الأخرى للضمير . كذلك من الواضح أن « رويس » لم يناقش مسألة نشأة الضمير وتحديد ما إذا كان فطرياً أم مكتسباً ، وإهتم بنتائجه فمن خالف ضميره خان قضيته ومجتمعه وفقد وحدته الذاتية وأصبح مجرد مجموعة من الأفكار والرغبات (١) . أى أنه درس الضمير من حيث وظائفه . كذلك إذا كان لكل فرد ضميره وقضيته التى يخلص لها إلا يودى ذلك إلى القول بنسبية الأخلاق ، وكيف تتفق هذه النسبية مع المثالية المطلقة التى ينتمى رويس إليها ؟ حقيقة أن « رويس » قال بقضية « الولاء للولاء » ، إلا أنه أعطى فى نفس الوقت للفرد حق الإختيار .

وان لكل ضميرة وقضيته ، الامر الذي يؤدي إما إلى النسبية أو المثالية الذاتية ، « رويس » لا ينتمى لأى منهما .

إذا كان الولاء لقضية ما ، يبدأ بالاعجاب بها ، وقد لا يعرف الفرد صلاحها أو فسادها إلا بعد خدمتها^(١) . فالسؤال الذي يفرض نفسه ، ما الذي يؤدي إلى الإعجاب بقضية ما ؟ الحقيقة أن الإعتماد على إنفعال الإعجاب ، يجعل الإنفعال أساس الأخلاق ، وبذلك يقترب موقف « رويس » من « برجسون » فى عده الإنفعال مصدراً للأخلاق^(٢) .

فبداية الولاء حب وإعجاب بالقضية . كذلك إذا وقع الفرد فى حيرة الإختيار بين قضيتين لعدم معرفته بالنتائج فإن مبدأ الولاء للولاء يلزمه بالإختيار وعدم التردد ، الأمر الذى يدفع الفرد للإختيار ، معتمداً على حسه الخلقى أو وجدانه ، وبذلك يصبح الولاء نوعاً من الحماس العاطفى وليس قائماً على فهم وإدراك ووعى . وإذا ماكتشف الفرد فساد القضية ، لتعارضها مع قضية الولاء للولاء ، وتأثيرها على ولاءات الآخرين ، فلا بد من التوقف عن الإخلاص لها^(٣) . وكان « الولاء الأعمى » أحد مراحل الولاء الصحيح ، والتجربة هى المحك الرئيسى لصحة أو فساد القضية ، وأخلاق الوجدان تظل أخلاقاً ناقصة إلى أن تؤيدها التجربة المعاشة . ولئن كان « رويس » يرد قيمة القضايا الخاسرة ، لدلالاتها على وجود الحقيقة الكلية ، فوجود القضية الخاسرة دليل على جود القضية الكلية للولاء للولاء ، وينتقل من المنطق إلى الأخلاق ، إلا أن القضايا الفاسدة أو تلك التى يتم إختيارها بالاستناد إلى العاطفة تون العقل ، لعدم معرفة نتائجها ، لا تمثل خطأ سورياً ، وإنما تمثل خطأً حياتياً وإجتماعياً ، وكم من نتائج إجتماعية قد تترتب على قضية فاسدة ، وكم من قضية كانت سبباً فى الإنهيار الإجتماعى ، وفى إندلاع الحروب ، بسبب « الولاء الأعمى » لها والذى أعده « رويس » مرحلة من مراحل الولاء الصحيح . حقيقة قال « رويس » بمعاناة الفرد وشعوره بالحزن ، نتيجة إكتشاف فساد القضية التى يخلص لها ، إلا أنه لم يوضح ضرر القضايا الفاسدة للمجتمع ، وبذلك تظل الأخلاق فى جوهرها ذاتية وإن كانت فى ظاهرها إجتماعية .

Ibid ., p.168.

(١)

(٢) برجسون : منبعاً الاخلاق والدين ، ترجمه سامى الدروبي ، الهيئة المصرية للتأليف - القايره ١٩٧١ من ٢٥

J.Royce : The Philosophy of Loyalty pp.182-185

(٣)

من الواضح أن فلسفة الولاء ، تبين محاولة « رويس » تحقيق تزاوج بين المثالية الألمانية والبراجماتية ، أو تحقيق نوع من التوافق بينها . فلقد كان محور الخلاف بين المثالية والبراجماتية فى الأخلاق بوجه عام ، يكمن فى السؤال التالى : أياكون مدار الأخلاق أداء الواجب الذى يقتضيه المبدأ الثابت الذى لا يتغير ، أم يكون مدارها على النتائج المترتبة على الفعل ؟ فجاءت فلسفة الولاء توفيقاً بين وجهى النظر . فتكون الأخلاق مطلقة ونسبية فى أن واحد ، فقد يتصرف الفرد وفق ما تقتضيه الظروف ويختار القضية التى يخلص لها ، وهذه هى النسبية ، ولكن على شرط أن يتكون من مختلف الإرادات والرغبات كل متسق تتكون منه حياة روحية واحدة أو وحدة روحية ، تتمثل فى الإخلاص لقضية الولاء للولاء وهذه هى الناحية المطلقة . كذلك إستطاع « رويس » أن يوفق بين أن يكون أساس الأخلاق طاعة المبدأ ، المتمثل فى الولاء للولاء ، والإذعان للإرادة الجمعية ، وأن يكون أساسها النظر إلى النتائج المثمثلة فى خير الفرد أو نتائج القضية فى الواقع أو تأكيد الذات ووحدتها .

كما تظهر محاولة التوفيق بين المثالية والبراجماتية فى محاولة « رويس » وضع أساس ميتافيزيقى لفلسفة الولاء ، فقدم نظرية فى الصدق ، يبرهن بها على واقعية القضايا وعلى وجود حقيقة أبدية ، ووحدة روحية للعالم ، وبذلك يصبح للولاء أساس ميتافيزيقى ، ويرتبط بنظرية محكمة فى الصدق ، ويبدو الإتجاه المثالى واضحاً . من جهة أخرى يظهر الإتجاه البراجماتى فى إعتبار الحق إشباع حاجة ، وإن كان الصدق يرتبط بالنفع عند البراجماتين ، فإن « رويس » قد جعله اتفاقاً بين الذات والعالم وكل فكر ينجح فى تحقيق التوافق يعد صادقا^(١) . وإذا كان الصدق إشباعاً لحاجة ، فإن ما يحتاجه الفرد ، هو تحقيق الوحدة مع الحقيقة الابدية ، وصدق القضايا يكون « فى التحقق الناجح لمطلب ما » ولا بد من وجود تجربة حية تشبع هذا المطلب . وأما بالنسبة للعالم الواقعى ، يتفق « رويس » مع البراجماتية ، فى أن الفرد لا يستطيع التعامل مع عالم مستقل عنه ، طالما أن أفكاره تسعى للتحقق ، فإنه يعرف العالم الواقعى باعتباره موضوعاً لأفعاله . كما يتفق مع المثالية ونظرة « كانط » للعالم فى أن محتويات العالم ومادته من طبيعته التجربة الإنسانية ، أو بالمعنى

Ibid ., pp. 370-372.

(١)

الكانطي ، خاضع لشرائط العقل وشروط التجربة ، ويحقق بنائه ثباتاً للأفعال . كما يظهر التوفيق بين المثالية والبراجماتية فى المزج بين فكرة الفروض المسبقة عند « كانط » ، ووجود قضايا مسلم بصدقها أو تصورات قبلية يتم التعامل بناء عليها (١) ، وبين فكرة « الاعتقاد » التى تعد من أفكار البراجماتية الأساسية سواء عند « وليم جيمس » أو « شارلز بيرس » ، إذ يؤسس « رويس » سلوك الولاء على فكرة « الاعتقاد » ، ففى التعريف الميتافيزيقى للولاء يقرر أن الولاء هو الرغبة فى التعبير عن الابدئى فى السلوك الفردى وما الاعتقاد إلا فرضاً مسبقاً .

تؤكد فلسفة الولاء على وجود علاقة أساسية بين حياة الولاء والدين ، وأن الحياة الدينية الصحيحة تعبر عن حياة الولاء . ويتم الاتحاد بين الأخلاق والدين من خلال إعتقاد كل من « المؤمن » و « المخلص » بوحدة العالم ، وبأن العالم مجتمع ، ولا يتم هذا الإتحاد إلا بتحقيق عنصرين ، الأول إعتبار فلسفة الولاء الفلسفة الأخلاقية الحقة ، والثانى تحويل الدين إلى « رمز » للحقيقة الأبدية ، وبذلك تقدم فلسفة الولاء حلاً لعلاقة الأخلاق بالدين . والحقيقة أنه بالرغم من أن « رويس » ، يرى أن الإتحاد بين الدين والأخلاق ، يأتى تلقائياً طبيعياً من خلال ميتافيزيقا الولاء والدين والإيمان بوجود الحقيقة الأبدية ، إلا أن من الواضح أن الاتحاد يعد إتحاداً مشروطاً ، أو يجعل الأخلاق أسبق من الدين وحاوية له ، فالشرط الاساسى لتحقيق هذا الإتحاد ، يتمثل فى معاناه المخلص وشعوره بالحزن نتيجة الإخلاص لقضية خاسرة ، حتى يتوفر له الإيمان بعالم فوق إنسانى ، تكسب منه القضية الخاسرة قيمتها وواقعيتها . وأما فى مجال الدين ، فإن الشرط يتمثل فى تفسير الدين بأنه يحوى نظرية اخلاقية ونظرية فى الكون وإعتقاد المؤمن فى حقيقة أبدية واحدة ، وتحويل ما جاء فى الوحي الى مجموعة من الرموز التى تشير الى تلك الحقيقة الأبدية (٢) . فلئن كان « رويس » يرى أن المخلص يحيا حياة دينية ، الا أنها حياة دينية بمفهوم خاص . فيكون المقصود بالدين هنا ، دين العقل ، أو التأويل ، وليس الدين بمفهومه التقليدى ، وبذلك يصبح الدين تجربة عابرة فى حياة الولاء ، واذا ما خضع للشروط يثرى تلك الحياة ويمتد بها . من

F.Copleston, S.J.:A History of Philosophy, Vol 6,pp70-80 (١)

J.Royce : Philosophy of Loyalty pp.382-389, 379. (٢)

جهة أخرى يمكن تبرير الإتحاد بين الدين والأخلاق من خلال الوجدان والخيال فنتيجة المعاناة من جراء الولاء لقضية خاسرة ، يميل المخلص معتمداً على الخيال للإيمان بعالم فوق إنساني ، كذلك المتدين ، يومن بقضايا ، لا يمتلك دليلاً على صدقها ، فيصاحب إيمانه المعاناة والبلاء . لذلك يمكن القول بأن الأتحاد بين الدين والأخلاق ، يكون تلقائياً في الجانب الوجداني أو العاطفي ومشروطاً في الجانب العقلي ، وبذلك يكون الوجدان التربة التي ينبت فيها الإتحاد بين الأخلاق والدين ، ويكون العقل بتأويل الدين ، وبتحويل القضية إلى مثل أعلى وتعتيلها ، هو الماء الذي يغذى هذا الاتحاد .

والحقيقة أن « رويس » لم يبرر ضرورة الربط بين الأخلاق والدين ، ولم يوضح مخاطر الفصل بينهما أو إستقلالهما . فيكفي أن يكون الفرد مخلصاً حتي يتحقق خيره الأقصى ، ويقتصر دور الدين علي أنه إذا تم تأويله وتحويله إلي رموز ، يعطي للمخلص بعض لمحات أو إشارات على وجود عالم فوق إنساني ، وبذلك يتحقق ما يسمى بالدين المطلق . الأمر الذي يجعل هذا الدين المطلق مجرد « دين الولاء » ، ومصحوب بنظرة صوفية للكون ، يمكن « لدين الولاء » أن يحيا بدونها ، وكان « رويس » يتفق مع « كانط » في أن الدين لا يوضح للإنسان كيف يكون سعيداً أو يعلمه ما لا تستطيع الأخلاق مده به . فمن الواضح أن الولاء يستوعب الأديان ، وله جذوره في الطبيعة الإنسانية وله ميثاقه ، ويحقق للفرد خلاصه ويصالح الإرادة الفردية مع الإرادة الجمعية ، ويشكل معياراً للقيم ، وله أنبياء الذين يضحون بأنفسهم في سبيل قضاياهم ، فيصبح الولاء ديناً ، وسلوك المخلص عبادة .

والحقيقة أن « فلسفة الولاء » كما صاغها « رويس » ، فلسفة تؤدي إلى الحيرة ويصعب تصنيفها ، أتعد فلسفة بحثه أي تنتمي لفلسفه الأخلاق بصوره عامة ، أم تعد فلسفة دينية ، تنتمي إلى المجال الديني . وإذا صح الافتراض بإنتمائها للدين ، أتنتمي للدين الطبيعي الذي صاغه « رويس » في كتاباته الفلسفيه الأولى أم تنتمي إلى الدين المسيحي ومشكلاته التي صاغها في مؤلفاته المتأخرة في كتابه « هتكلمة المسيحية » كذلك إذا

كان هناك علاقة بين الولاء والدين أو إنتماء الولاء لفلسفة الدين ، أجات فلسفة الولاء ، صورة فلسفية تعبر عن الدين المسيحى ، أى صورة فلسفية للمسيحية ، أم صورة مسيحية للفلسفة ؟ بمعنى هل جات فلسفة الولاء ، تبريراً للمسيحية ومشكلاتها ، وأن المسيحية هى الدين الحق أم جات المسيحية تطبيقاً لفلسفة الولاء ، وتعاليم السيد وأقوال « بولس » ، نموذجاً للولاء . الحقيقه أنه يمكن تفسير فلسفه الولاء تفسيرين :

التفسير الأول : أن فلسفه الولاء فلسفه إخالقية بحته وبذلك تصبح دراسة « رويس » الميتافيزيقية والأخالقية والدينية بصورة عامه ما هى إلا تمهيداً وإثباتاً وتأكيداً لهذه الفلسفه ومما يؤكد هذا الزعم .

أولاً : أنها جاعت فى مرحلة متوسطة بين مؤلفات « رويس » أى فى عام ١٩٠٨ ، أى بعد ظهور كتاب الجانب الدينى للفلسفه (١٨٨٥) الذى عرض فيه فلسفته الدينية والأخالقية وكتاب العالم والفرد (١٩٠١) الذى عرض فيه ميتافيزيقاه . وجاعت قبل ظهور كتاب « مشكلة المسيحية » (١٩١٣) الذى طبق فيه فلسفه الولاء ، وبالتالي تصبح فلسفه الولاء هى الأصل ، فالكتابات الفلسفية الأولى تمهد لها ، والمتأخرة تطبيق لها .

ثانياً : يلاحظ أن « رويس » سعى لتأسيس فلسفه الولاء ، بنظرية فى الحقيقة وفى وجود العالم ، وبالتالي تصبح فلسفه الولاء فلسفه بحته لها جنورها الفلسفية ، ثم حاول إثبات صحة هذه الفلسفه بالتطبيق العملى ، فطبقها على بعض مشكلات المجتمع الأمريكى^(١). وبالتالي تصبح فلسفه إجتماعية ، ثم طبقها على مشكلات المسيحية . وبالتالي تصبح المسيحية دين الولاء . ومعنى ذلك أن « رويس » يتهم بالدرجه الأولى بالمجتمع وفلسفه الولاء فلسفه إجتماعية ، يتم تفسير المسيحية من خلالها ، أو تصب المسيحية فيها ، وأقوال السيد وتعاليم «بولس» ما هى إلا أثباتاً لها كذلك يلاحظ أن «رويس»

J.Royce : The Philosophy of Loyalty .pp.199-211.

(١)

حاول اثبات أن الولاء يتفق مع المذهب الفردي الأخلاقي ، ولا يمكن تحقيق الفردية والحرية الأخلاقية إلا بالولاء . وبالتالي يصبح الإخلاص للمجتمع ، غاية الولاء ، ولا بد أن تكون القضية إجتماعية ، وبالتالي يصبح المجتمع المصب الذى يصب فيه كل فكر فلسفى أو دينى .

ثالثا : يلاحظ أن « رويس » إعتبر كل باحث عن الحقيقة ، وكل مؤمن بدين ما وبحقيقة فوق إنسانية ، من المخلصين لقضية « الولاء للولاء » وبذلك يجمع الإخلاص بين الفلاسفة والمؤمنين ، ويعتبر الولاء القيمة الكامنه والدافعة وراء كل فكري فلسفى أو دينى .

التفسير الثانى : أن فلسفة الولاء ، قد صيغت لتبرير المسيحية ، ومما يؤكد هذا الزعم :

أولا : أن « رويس » فى كتاباته الفلسفية الأولى ، كان فيلسوفاً مؤمناً ، والمسيحية هى الروح الدفين فى كل مؤلفاته ، سواء فى المشكلات التى حاول حلها ، أو فى ميتافيزيقاه التى أسسها تأسيساً عقلياً بحثاً ، أو فى روح فلسفته الدينية ، التى قد توحى أويفهم منها أنها فلسفة للدين الطبيعى والحقيقة أن هذا الدين ما هو الا الدين المسيحى .

ثانيا : إذا كان كتابه الجانب الدينى للفلسفة (١٨٨٥) قد عرض لفكرة الفلسفى العام ، وجاء كتابه العالم والفرد (١٩٠١) كعرض تفصيلى لمشكلات المعرفة والوجود ، فإن كتاب فلسفه الولاء (١٩٠٨) قد جاء كعرض وإعادة صياغة لفلسفته الأخلاقية ، وبالتالي يكتمل ويترابط المذهب الفلسفى بتفصيلاته ، ثم يظهر كتاب «مشكله المسيحية» (١٩١٣) الذى يعالج مشكلات المسيحية فى ضوء المذهب ، وبالتالي يمكن القول بأن فلسفة الولاء كانت من الناحية التاريخية الفلسفة المكمله والمهده لمناقشة المسيحية ومشكلاتها ، وبالتالي تصبح فلسفة الولاء فلسفة خادمة وتبريري للفكر الدينى المسيحى .

وثالثاً يلاحظ أن « رويس » فى كتابه « فلسفة الولاء » أكد على قدره إتصاف القضية بالعموم وإعتبر القضايا الإجتماعية (١) أنسب قضايا الولاء ، ثم عاد فى كتابه « مشكلات المسيحية » فقال بأن الولاء يكون لقضايا دينية (٢) . وبالتالي تصبح قضايا الدين هى القضايا الجديرة بالولاء ، وفلسفة الولاء فلسفة تؤدى إلى الإيمان بوجود حقيقة فوق إنسانية . وقد يظهر إعتراض ، بأن ذلك لا يعنى إعتبارها فلسفة تبرر المسيحية ، ويمكن أن تكون تبريراً لأى دين آخر ، سماوى أو إنسانى ، ولكن ما يؤكد إعتبارها تبريراً للمسيحية ، أن « رويس » طالب بضروره التدريب على الولاء (٣) ، وأنه لا بد وأن يتم على يد قائد يضرب نموذجاً للولاء ويضحى بحياته من أجل القضية التى يخلص لها ويعلم « رويس » بأن المسيح قائد المخلصين والمثل الأعلى لهم . كذلك جاد تأكيده بضرورة المعاناة والعذاب والألم ، والإنتهاء إلى الموت من أجل القضية ، حتى تكسب القضية بالإخلاص لها وظلونها ، وبذلك يعتبرالمسيح ومعاناته وحلقة النموذج الحق للولاء (٤) . وأكد على أن الكنيسة نموذج لمجتمع المخلصين ، وأخيراً ومما يؤكد هذا الزعم أن « رويس » لم يطبق فلسفة الولاء على أى دين آخر ، وإنما إختار المسيحية كنموذج لفلسفة الولاء وبالتالي يمكن القول بأن فلسفة الولاء ما هى إلا فلسفة دينية مسيحية . والحقيقة وأن كان كلا التفسيرين يتسقان مع النهج المزدوج لفلسفة « رويس » الدينية ، إلا أن التفسير الثانى أكثر إتساقاً مع الروح الكامنة لفلسفة « رويس » الدينية . تلك الفلسفة التى يمكن ردها فى النهاية إلا أنها مجرد إعادة صياغة للمسيحية ، ومحاولة لحياتها ، وإعادة الثقة فيها ، والولاء أنسب فلسفة تعيد مثل هذه الثقة ، فما على المواطن ، إلا أن يخلص لقضية ما ، حتى وإن كان لا يعلم النتائج المترتبة عليها .

J.Royce : The Philosophy of Loyalty .pp.17, 20 , 252.

(١)

J.Royce : The Problem of Christianity p.I.pp.114-115.

(٢)

J.Royce : The Philosophy of Loyalty .pp.269-276.

(٣)

Ibid., p.294

(٤)